الجذور التاريخية لمأزق الدولة الوطنية في الجزائر

ملخص

تتطرق المقالة إلى مختلف المقاربات التي تحاول تفسير مأزق الدولة الوطنية في الجزائر وفشلها في تحقيق طموحات وأهداف الثورة الجزائرية بعد استرجاع الجزائر استقلالها ، وبعد ذلك يحاول الباحث أن يفسر تاريخيًا أسباب الفشل ، وينطلق في ذلك من بعض الطروحات الخلدونية في نشأة الدولة في البلاد المغاربية والعربية والإسلامية عامة ، ويرى بأن هناك ظاهرة تتكرر في البلاد الإسلامية بعد قيام أي محاولة لبناء الدولة ، ولم تكن الجزائر بمنأى عن هذه الظاهرة باعتبارها جزء من الفضاء الحضاري الإسلامي.

مقدمة

قدم الشعب الجزائري للعالم أجمع ثورة عظيمة ، وكانت محط أنظار العالم ، وأعطت أكثر من مليون ونصف مليون شهيد ، لكن بعد ٤٥ سنة من استعادة الجزائر استقلالها ، لم يستطع هذا الشعب تحقيق أحلام وطموحات الكثير من الشهداء الذين كانوا يعتقدون أنه بعد طرد الاستعمار فإن الجزائر ستصبح في غضون سنوات بلد يعيش شعبها في الرفاهية والتقدم وكنف العدل والديمقراطية واحترام الحريات بكل أشكالها. إن الفشل في تحقيق هذه الأحلام وتردي الجزائر اليوم في تقهقر شامل ، يدفع الكثير إلى التساؤل كيف ولماذا وصلت الجزائر إلى هذا الوضع ؟ وأين تكمن أسباب وجذور ذلك ؟ ومن أوصلها إلى هذا الوضع ؟ وسنحاول في هذه الدراسة متابعة مختلف المقاربات والتفسيرات لهذا الفشل الذي منيت به الدولة الوطنية في الجزائر.

أولاً: بعض المقاربات العامة

نقصد بهذه المقاربات تلك التي حاولت تفسير فشل البلدان التي استرجعت استقلالها حديثًا دون تخصيص بلدان معينة ومنها الجزائر ، لكن بإمكانها أن تعيننا لفهم فشل الدولة الوطنية في الجزائر ، وتختلف الإجابات عن هذه الأسئلة من واحد إلى آخر ، فبعض الغلاة من المعمرين ينطلقون من رؤى عنصرية ، انتشرت بقوة في القرن التاسع عشر في أوروبا ، مفادها أن التقدم والحضارة هي حكر على الغرب فقط دون الشعوب الأخرى ، ويريدون إقناعنا أن بلدان العالم الثالث ، ومنها الشعوب العربية والمسلمة ، لا يمكن لها أن تتقدم ، وأن التخلف طبيعة فيها ، ودفعهم ذلك إلى القول بأن للاستعمار كانت له الكثير من المحاسن ، ويستدلون في ذلك بما وصلت إليه الأوضاع بعد استرجاع البلدان المستعمرة لاستقلالها ، بل هناك بعض المثقفين تحسروا على دعمهم حركات التحرر في الماضي مثل ألبير ميمي صاحب الكتاب الشهير "صورة المستعمر والمستعمر" الذي صدرعام١٩٥٧[١] ، أين فضح الدمار الذي ألحقه الاستعمار بالبلدان المستعمرة والإنسان المستعمر ، ليتراجع بعد عقود ويكتب كتابًا آخر بعنوان "صورة الإنسان ما بعد المستعمر" يتطرق فيه لفترة ما بعد الاستعمار والوضع المأسوي الذي خلفه الوضع الجديد ، ومنها الجزائر.[٢]

كما نجد أطرافًا أخرى تحاول تفسير هذا التخلف بالنظام العالمي الذي لا يسمح لشعوب العالم الثالث بالتقدم بعد ما ربطها بالاقتصاد الرأسمالي العالمي ، ويطالب أصحاب هذا التفسير بإعادة النظر في النظام الاقتصادي العالمي ، ومنهم أصحاب نظريات التبعية وارتباط

د. رابح لونيسي
أستاذ التاريخ المعاصر
قسم التاريخ - جامعة وهران
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
lounici.rabah2008@yahoo.fr

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
رابح لونيسي ، الجذور التاريخية لمأزق الدولة الوطنية في الجزائر.- دورية كان التاريخية.- العدد الثاني عشر ؛ يونيو ٢٠١١. ص٧١ — ٧٥. (www.historicalkan.co.nr)

التخلف بالتوسع الرأسمالي، ويذهب الرئيس الجزائري الأسبق أحمد بن بلة هذا المنحى، وذلك انطلاقًا من تجربته في السلطة واصطدامه بالقوى والمصالح الرأسمالية العالمية، فيعترف بالقول "أن البلدان المتخلفة ستفشل في كل مشاريعها، طالما لم تتخلص من إطار وقواعد النظام الاقتصادي الرأسمالي العالمي"[٣]، ولعل هذا المأزق هو الذي دفع الرئيس هواري بومدين إلى تركيز جهوده كلها في السبعينياتمن القرن العشرين من أجل إقامة نظام اقتصادي عالمي جديد أكثر عدلاً وإنصافًا.

وتوجد تفسيرات أخرى لهذه الأوضاع المتردية، ومنها من يردها إلى عوامل أعمق في التاريخ والتكوين المجتمعي للعرب، ومنهم الباحث محمد جابر الأنصاري الذي يقول بأن مأساة العالم العربي السياسية تعود إلى عمق التاريخ العربي، ولهذا حتى ولو تغير النظام، وطبقت كل الأيديولوجيات، فإن المصير هو تكرار الفشل دائما لأن "الأزمات السياسية المتلاحقة التي يعانيها العرب ليست وليدة الحاضر الراهن وحده، وليست نتاج لحظاتها الآنية المنعزلة، وإنما هي أعراض لتراكم واقع موضوعي طويل الأمد، تداخلت فيه عوامل المكان والزمان والتكوين الجمعي، أي بكلمة أخرى: عوامل الجغرافيا والتاريخ والتركيبة المجتمعية المتوارثة، والممتدة إلى عمق الحاضر المعاش في مختلف مظاهره وأعراضه التي يعانيها عرب اليوم"[٤].

ويمكن أن يستند آخرون في تفسير هذا التقهقر على دراسة عالم اجتماع الثورات "كرين برنتون" الذي يقول بفكرة دورات الثورات، حيث يرى أن كل ثورة تعود إلى نقطة البداية أي مرحلة بداية الثورة على الوضع المتردي، مثل الوضع الاستعماري الفرنسي في حالة الجزائر، وتوصل "كرين برنتون" إلى ذلك من خلال دراسته لكل من الثورات الثلاث الكبرى الفرنسية والأمريكية والروسية ومقارنتها بجسم الإنسان وعلله، فيقول "أننا سنعتبر الثورات...نوعا من الحمى، ومن السهل معرفة الخطوط العريضة التي تبين الحمى، ففي المجتمع خلال الجيل أو نحوه قبل انفجار الثورة- في النظام القديم-ستوجد علامات الاضطراب القادمة، وهذه العلامات على وجه الدقة ليست أعراضًا تامة، إذ أنه عندما تظهر الأعراض بصورة كافية يكون المرض قد حل بالجسم فعلاً، وربما من الأفضل وصفها بأنها نذر، ودلالات يعرف منها الطبيب أن المرض في طريقه إلى الظهور، ولكنها ليست نامية بالقدر الكافي لتصبح هي المرض نفسه، ثم يأتي وقت تظهر فيه الأعراض تمامًا، وعندئذ نستطيع أن نقول أن حمى الثورة قد بدأت، وهذه الحمى تشتد أحيانًا وتخف حينا، ويصاحبها في أغلب الأحيان هذيان، هو حكم أشد الثوار عنفًا، حكم الإرهاب، وبعد ذلك تجيء فترة النقاهة، وهي تتميز عادة بنكسة أو نكستين، وأخيرًا تنتهي الحمى، ويستعيد المريض نفسه مرة أخرى، وربما يشعر بالقوة في بعض النواحي نتيجة التجربة، ويكتسب على الأقل مناعة لفترة ما ضد مرض مماثل، ولكن من المؤكد أنه لا يصبح كلية إنسانًا جديدًا، وهذا ينطبق على المجتمعات التي تقوم بثورة كاملة، فإنها تخرج منها قوية إلى حد ما، ولكنها لا تكون جديدة تمامًا"، وبتعبير آخر فإنه قد تنشأ حالة اختلال نسبي في التوازن وينفجر ما نسميه ثورة، فهي تشبه جسم الإنسان، نحن نعرف في جسم الإنسان يكون اختلال التوازن الذي نسميه مرضًا مصحوبًا ببعض التفاعلات التي تعمل على إعادة الجسم إلى حالة تشبه ما كان عليه قبل هجوم المرض.

ويبدو من المحتمل تمامًا أنه في النظام الاجتماعي المختل التوازن، يكون هناك شيء ما من نوع هذه التفاعلات التي تعمل على إعادة الظروف القديمة، وأن هذا ليساعد على أن يفسر لماذا لا تصبح الثورات كما يريدها الثوار، أن التكيفات القديمة تعمل على إعادة استقرارها، وتنتج ما يعرف في التاريخ بالرجعية أو العودة إلى نقطة البداية"[٥]، فهل عرفت الثورة الجزائرية هذه الدورة ووصلتها اليوم؟ وهل تعيش الجزائر اليوم على فوهة بركان ثورة أخرى بفعل اختلال التوازن في المجتمع من جديد كما كان عشية اندلاع الثورة الجزائرية ضد التواجد الاستعماري الفرنسي عام١٩٥٤؟.

كما يمكن الاستناد على طرح للمفكر الإيراني علي شريعتي يقول فيه أن كل الدعوات الكبرى ومنها الرسائل السماوية يقع فيها الانحراف بعد انتصارها، ويستولي عليها "الطغاة والاستغلاليون"، ثم يلبس هؤلاء لباس تلك الرسالة أو الدين ليستغلوا بها الجماهير، فكتب علي شريعتي يقول "عندما يبعث الأنبياء الداعون إلى التوحيد، ترى دين الشرك يتصدى لهم ويقف في وجههم، وعندما ينتصر الأنبياء في هذه المواجهة، تستمر حياة دين الشرك وأنصاره وخلفائهم بشكل خفي" أي يتسترون تحت عباءة الدين الجديد ومثله وقيمه"، ويلخص شريعتي فكرته بالنسبة للإسلام بقوله "لقد حكم دين الشرك باسم الإسلام ...وباسم القرآن كما حكم في القرون الوسطى باسم عيسى وموسى..."[٦]، فهل وقع ذلك للثورة الجزائرية؟ فهل استولت الثورة المضادة على قيم الثورة ومبادئها ورسالتها، واختفت تحت عباءتها وقيمها ومبادئها لضرب الثورة من الداخل وتقويض أهدافها السياسية والاجتماعية والثقافية؟ فكان هؤلاء وراء ما وقع في الجزائر، فصادر هؤلاء الثورة الجزائرية واستخدموها لخدمة مصالحهم، وصادروا استقلال الشعب الجزائري وثورته - حسب فرحات عباس- الذي ألف كتابا عنونه بـ"الاستقلال المصادر".[٧]

ثانياً: المقاربات والتفسيرات الخاصة بالجزائر

يكاد يتم الإجماع في الجزائر على أن هناك انحرافًا قد وقع في مسار الثورة الجزائرية، لكن يختلف هؤلاء في تحديد من وراء الانحراف وفي أي فترة تاريخية بدأ، فنجد المؤرخ محمد حربي يرده إلى فترة الثورة المسلحة مستندًا على الطروحات التروتسكية وتحليلات مجلتهم "اشتراكية أم بربارية"، فيرى أن جبهة التحرير الوطني قد تحولت إلى جهاز بيروقراطي، فتولد منه "طبقة برجوازية بيروقراطية"، فوقع الانحراف، وهو نفس ما وقع للثورة الشيوعية على يد النظام الستاليني، وقد سمحت الأيديولوجية التروتسكية لمحمد حربي باكتشاف ما يسميها بـ"البرجوازية البيروقراطية" داخل نظام جبهة التحرير الوطني أثناء الثورة وبعد استرجاع الاستقلال، كما كانت طروحاته التروتسكية وراء نقده اللاذع لممارسات جبهة التحرير الوطني التي عادة ما يشبه ممارساتها بشكل غير مباشر بـ"الممارسات الستالينية" رغم انتمائه إلى هذه الجبهة حتى عام١٩٦٥.[٨]

أما عالم الاجتماع السياسي الجزائري عدي الهواري، فينطلق من فكرة مفادها أن في الجزائر سلطتين منذ استرجاع الاستقلال، فهناك سلطة ظاهرية أو واجهة، لكن تعينها سلطة فعلية وخفية، وتتمثل في جهاز الأمن العسكري، الذي يعد في نظره التنظيم الوحيد الموجود في الجزائر، فهو يتحكم في السياسيين وكل التنظيمات والمنظمات والمؤسسات وأجهزة الإعلام وغيرها من المؤسسات والأجهزة التي

تغلغل إليها وسيطر عليها، وأن هذه السلطة الفعلية، والتي تتحكم في السلطة الظاهرية، هي التي أنتجت رداءة في كل المجالات، وأبعدت الشعب الجزائري عن السلطة وتقرير مصيره وانتخاب واختيار ممثليه السياسيين[٩]، وهو نفس الطرح الذي يتبناه حزب جبهة القوى الاشتراكية بقيادة الزعيم التاريخي حسين آيت أحمد الذي يتحدث عن سلطتين في الجزائر أحدها حقيقية وفعلية وأخرى سلطة واجهة.

كما نجد البعض يفسرون الوضع في الجزائر بكلام أيديولوجي أكثر مما هو علمي، وينتشر بقوة لدى بعض المثقفين سواء كانوا معربين أو مفرنسين، وهو نتاج الشقاق الثقافي الذي تعرفه الجزائر، ويحاول كل طرف تحميل الآخر المسؤولية، فبعض المثقفين المعربين يحاولون اختزال أسباب الوضع كله في سيطرة الذين يسمونهم ب"المفرنسين والتغريبيين" في السلطة، وينعتونهم ب"حزب فرنسا"، ونجد طرح معاكس لدى بعض المثقفين المفرنسين الذين يحملون المسؤولية للذين ينعتونهم ب"الأصوليين والبعثيين" الذين سيطروا — حسبهم- على المدرسة والإعلام والإدارة والحزب وغيرها من المؤسسات، وغرابة الأمر أن عناصر من السلطة ذاتها تدعم كلا الطرفين في هذا القول، كي تبعد المسؤولية عن كاهلها، كما تضرب السلطة هذا الطرف بذاك طبقا لمبدأ "فرق تسد".

كما تسعى دائمًا السلطة في الجزائر إلى إلقاء مسؤولية الوضع المتردي على الآخرين كالاستعمار والعدو الخارجي والامبريالية وغيرها من التعبيرات التي تشبه إلى حد ما قول بعض الجزائريين أثناء العهد الاستعماري، بأن الاستعمار قضاء وقدر، بدل تحمل كل فرد المسؤولية عن وضعه الاستعماري، ويسعى للتحرر منه. وتتعدد التفاسير البسيطة لهذا الأمر لدى عامة الناس، فنجد منهم من يرد بداية الانحراف إلى فترة حكم الشاذلي بن جديد، ويسميها بـ"العشرية السوداء"، ومنهم من يذهب أبعد من ذلك ويردها لفترة هواري بومدين أو أحمد بن بلة، بل نجد من يرد هذه البداية إلى أكتوبر ١٩٨٨، ويعتبر تلك الأحداث مؤامرة لإجهاض الثورة.[١٠]

وهناك بعض الباحثين الاجتماعيين الموضوعيين والمتسمين بالعلمية، فإنهم يحاولون الغوص في تركيبة المجتمع الجزائري وتكوينه التاريخي لتفسير العديد من القضايا، ونرى نحن مثلاً أن ابن خلدون بإمكانه أن يفسر لنا العديد من القضايا اليوم، ومنها العصبية الجهوية والقبلية التي تضرب الجزائر في عمقها اليوم، بالإضافة إلى قول البعض بأن الريفيون والفلاحون هم الذين سيطروا على الدولة عام ١٩٦٢ بدل الحضر والمدينيون، وهو ما ينطلق من التفسير الخلدوني لظاهرة الدولة في المغرب الكبير. إن هذه المقاربات تحتاج إلى تعمق أكبر لفهم الذات وأسباب العجز عن التقدم، وقد حاولنا في كتابنا "رؤساء الجزائر في ميزان التاريخ"[١١] مقاربة المشكلة جزئيا بإعطاء صورة عن مختلف المراحل التي مرت بها الدولة الوطنية الجزائرية منذ عام ١٩٦٢، مع محاولات منا إعطاء تفسير للكثير من الظواهر والوقائع.

ونعتقد أنه لكي نفهم ما وقع في الجزائر علينا أن نجيب عن إشكاليات كبيرة ومنها: هل طريقة انتقال الحكم من السلطة الاستعمارية إلى الجزائريين عام١٩٦٢ قد تمت في ظروف عادية أم في ظروف أخرى كان لها تأثير سلبي على الجزائر؟ وقد لاحظنا من خلال دراستنا أن فتنة أو أزمة صيف ١٩٦٢ تشبه إلى حد كبير الفتنة الكبرى التي عرفها المسلمون بعد انتصار الإسلام في شبه الجزيرة العربية بكل انعكاساتها. وهو ما يدفعنا إلى القول أن أغلب بلدان العالم الإسلامي عامة والعالم العربي خاصة عادة ما تتكرر لديهم تجربة الدولة الإسلامية الأولى وما تبعها من سعي الأمويين للاستيلاء على السلطة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ونجاحهم في ذلك بعد فترة قصيرة من حكم الخلفاء الراشدين. ونعتقد أنها البنية الأساسية لميلاد الدولة في بلدان العالم الإسلامي عامة والعالم العربي خاصة، وأن المقارنة بين نشأة الدولة الوطنية في الجزائر وتطورها بنشأة الدولة الإسلامية الأولى وتطورها ثم انحرافها كفيل لنا بأن نبين كيف تكررت نفس الظاهرة مع الجزائر وثورتها. كما بينت لنا دراستنا لتطور الدولة الوطنية في الجزائر منذ استرجاع الاستقلال إلى حد اليوم، أنها تحكمت فيها المحددات الثلاث التي وضعها محمد عابد الجابري في كتابه "العقل السياسي العربي"[١٢]، والتي أخذها عن ابن خلدون وهي العقيدة والقبيلة والخراج أو الأيديولوجية والقبيلة والريع بالتعبير المعاصر كما سنوضح ذلك في دراسة أخرى.

ثالثًا: المقارنة بين تطور الدولة الوطنية الجزائرية وتطور دولة الإسلام الأولى

مادام الجزائر وثورتها مرتبطة بفضاء حضاري عربي وإسلامي، فإنه يجب أن نقارن بين ثورتها التي أدت إلى نشأة الدولة الوطنية وثورة الإسلام على يد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ونشأة وتطور دولة الإسلام الأولى، وننطلق في ذلك من الفكرة التي أوضحناها آنفا، والتي مفادها أن الكثير من دول العالم الإسلامي والعربي تنشأ بنفس الطريقة التي نشأت بها دولة الإسلام الأولى، أي دعوة دينية أو مذهبية ثم بناء الدولة التي تنحرف عن تلك الدعوة الأولى ومبادئها ثم تمر بدورة كاملة من التأسيس حتى السقوط وتترك المكان لدولة جديدة — حسب الدورة الخلدونية-.

ويعتقد الكثير من أن نفس ظاهرة نشأة الدولة وتطورها تتكرر في العالم العربي منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، فتبدأ بدعوة دينية ومذهبية أو أيديولوجية بالتعبير المعاصر ثم تتحول إلى دولة، لكنها دولة بعيدة نوعا ما عن مبادئ دعوتها الأولى، ولو جئنا وقارنا بين نشأة وتطور دولة الإسلام الأولى ونشأة وتطور الدولة الوطنية في الجزائر، فإننا نلاحظ تشابها كبيرا في مسار نشأة الدولتين وتطورهما، ومنها سرية الدعوة والحفاظ على الوحدة ثم الصراع حول السلطة بعد انتصار الدعوة.

١- الدعوة السرية

فكما بدأت دولة الإسلام بدعوة سرية للدين الإسلامي الجديد، فإن الدعوة للأيديولوجية الوطنية المرتبطة بالدعوة لاستقلال الجزائر عن الاستعمار الفرنسي- الذي كان يعتبر البلد جزء لا يتجزأ من فرنسا-، مما يعني في نظره أن أي دعوة إلى الاستقلال تعد دعوة خطيرة وخيانة عظمى للدولة الأم وهي فرنسا، ولهذا السبب أحيطت هذه الدعوة بالسرية التامة، وقد أثرت هذه السرية في أغلب المنضوين في الحركة الاستقلالية الجزائرية، ومنهم بعض مسئولي الدولة الوطنية فيما بعد، أي عدم الحديث عن كل ما يدور داخل الدولة، ومنها الصراعات المختلفة.

٢- الحفاظ على الوحدة

لقد عمد الاستعمار الفرنسي إلى استغلال مختلف التناقضات القبلية والجهوية واللغوية والاجتماعية والسياسية والأيديولوجية في الجزائر لتفجير الحركة الاستقلالية ثم الثورة من الداخل، وهو الأمر الذي جعل أي حديث ضمن الحركة الاستقلالية عن هذه التناقضات أو أي إشارة إليها معناه خدمة للاستعمار وأهدافه وسعي لزرع الفتنة، ولهذا السبب سادت الأيديولوجية الوطنية وفكرة الوحدة الوطنية والحفاظ عليها على حساب إظهار أي تناقض من مختلف هذه التناقضات في الخطاب السياسي الجزائري لفترة طويلة بعد استرجاع الاستقلال.

وتعد أية إشارة إلى هذه التناقضات معناه المساس بالوطن ووحدته، حتى ولو كانت هذه التناقضات وبعض الممارسات الجهوية والإقصاءات الثقافية مثلاً يعيشها الإنسان الجزائري يوميًا في حياته، وبتعبير آخر فإن التعبير الأيديولوجي السائد في الجزائر المستقلة لمدة عقود هو محاولة أو أسلوب للتغطية على مختلف التناقضات والصراعات والممارسات التي تسود الجزائر أو أي مجتمع كان في العالم، وهو ما يسميه عدي الهواري بـ"الشعبوية"، ويقصد بها الأحادية في كل شيء وعدم الاعتراف بمختلف التناقضات السائدة في المجتمع، واعتباره أي تعبير عن تناقض أو اختلاف بأنه تهديد للوحدة الوطنية، وهو ما من شأنه أن يعرقل أي إعتراف بالتعددية الديمقراطية، وألحقت الجزائر بذلك إلى ماأسماه بـ"مأزق الشعبوية".[١٣]

٣- الصراع حول السلطة

نجد تشابهًا كبيرًا بين المسار التاريخي لبناء دولة الإسلام الأولى والدولة الوطنية في الجزائر، ومن أبرز هذه التشابهات، هو الصراع حول السلطة التي عرفتها البلاد غداة الاستقلال بين الثوار أنفسهم، وهو يشبه إلى حد كبير الفتنة الكبرى التي عرفها تاريخ الإسلام، وقد كان هذا الصراع عام ١٩٦٢ وراء تصفية واستبعاد الكثير من القادة الكبار الأوائل الذين كانوا وراء إشعال فتيل الثورة - هذا إن لم أقل كلهم- من أي دور في الدولة الوطنية، وهو ما يشبه تقريبًا استبعاد الكثير من الصحابة الكبار في تاريخ الإسلام من دولة الأمويين، وأكثر من هذا، فكما أطلق الأمويون تسمية الخوارج والروافض على المعارضين للسلطة الأموية، ويخبرنا التاريخ الأموي كيف لعنوا بعضهم في المساجد ومنهم علي أبن إبي طالب، فإننا نجد نفس الظاهرة تقريبا عرفتها الدولة الوطنية الجزائرية في فترتي حكم الرئيسين هواري بومدين وأحمد بن بلة، حيث همش الثوار والزعماء التاريخيين للثورة من مسار بناء الدولة، ونفي الكثير منهم إلى الخارج، وأغتيل بعضهم مثل كريم بلقاسم الذي شرع في العمل المسلح ضد الاستعمار بمنطقة القبائل عام ١٩٤٧، وكان من كبار زعماء الثورة المسلحة، وتم اغتياله عام ١٩٧٠ بفرنكفورت بألمانيا، وكذلك محمد خيدر الذي أغتيل عام ١٩٦٧ بإسبانيا.

ونذكر أيضًا نفي كل من محمد بوضياف وحسين آيت أحمد اللذان حكمت عليهما السلطة في الجزائر بالإعدام في بدايات سنوات الاستقلال، ثم هربا كلاهما إلى الخارج فيما بعد، وكان أغلب هؤلاء الزعماء الكبار قد وجهت لهم تهم العمالة للخارج، ومنها تهمة العمالة لفرنسا ذاتها، وهي المفارقة الكبيرة، فكيف يكون هؤلاء عملاء لفرنسا، وهم الذين ضحوا بشبابهم ضد هذا الاستعمار الفرنسي، هذا قليل من كثير من الأمثلة لما وقع للكثير من المجاهدين الكبار، وقد صعد في جزائر ما بعد الاستقلال جيل آخر لم يلتحقوا بالثورة في بداياتها، بل أن البعض من قادة جيش الدولة الوطنية كانوا يعملون لفترة طويلة في الجيش الاستعماري، ولم يلتحقوا بالثورة إلا في سنواتها الأخيرة[١٤]، أي يشبهون نوعا ما "المطلقة أيديهم" عند فتح مكة، لكن هؤلاء هم الذين استولوا على مقاليد السلطة بحكم سيطرتهم على الجيش، ونشير إلى أنه قد أستبعد الكثير من المجاهدين من الجيش عند الاستقلال، ونخص بالذكر مجاهدو الداخل الذين اكتووا بنار الثورة، وتركوا الساحة لجيش الحدود وضباطه الذين كانوا على الحدود في كل من تونس والمغرب، ولم يعرف الكثير منهم معنى الحرب مع الجيش الاستعماري.

ونشير إلى أن أغلب القادة الكبار الذين استبعدوا وهمشوا بعد الاستقلال قد تحولوا إلى معارضين للنظام القائم، وينحدرون من مناطق محددة، ويأتي على رأس هذه المناطق منطقة القبائل الواقعة في وسط وشرق الجزائر، وقد حاول البعض من هؤلاء المعارضين الاستناد على هذه المنطقة لمواجهة النظام الحاكم الذي أستند على مناطق حدودية أخرى، وهي الغرب والأوراس اللتان لجأ البعض من مجاهديها إلى خارج الحدود أثناء اشتعال لهيب الثورة المسلحة، وذلك على عكس المناطق الوسطى من البلاد التي يغلب عليها القبايل، ولهذا كان الصراع غداة الاستقلال بين جيش الحدود والمناطق الحدودية من جهة ومجاهدو الداخل والمناطق الوسطى من البلاد من جهة أخرى، وهو ما يفسر لنا إلى حد ما هذا العداء الكبير الذي تعرفه منطقة القبائل بفعل تشويه إعلامي مارسته بعض عناصر النظام الذي استولى على السلطة عام ١٩٦٢ ضدهم، وأصبح يصورهم بالعمالة لفرنسا والانحراف عن الثورة وغيرها من النعوت والصفات، بالإضافة إلى محاولات مسخ دورهم الكبير جدا في النضال ضد الاستعمار، وهي المنطقة التي ينحدر منها كبار قادة الثورة العظام الذين عارضوا الجماعة التي أخذت السلطة عام ١٩٦٢.

إن هذا التشوية والنعوت المتبادلة والصراع الجهوي الحاد الذي تعرفه البلاد، خاصةً بين منطقة القبائل والمناطق الأخرى يشبه إلى حد كبير تلك الرؤى والنعوت التي عرفها تاريخ الإسلام بين الأمويين وأنصارهم من جهة والشيعة والخوارج المعارضين لهم، والذين ألصق الأمويون بهم صفات "الخوارج" و"الروافض" والإدعاء أن اليهود وراءهم وغيرها من الأقوال والمعتقدات الشائعة بصفة عامة لدى البعض من المسلمين، وكما ظهرت كنتيجة عن تلك الفتنة الكبرى واستيلاء الأمويين على السلطة مختلف المذاهب والفرق الدينية في الإسلام التي كانت مجرد تعبير أيديولوجي عن الصراع السياسي، فإننا نجد نفس الأمر في جزائر ما بعد الاستقلال في تفسير وفهم الأيديولوجية الوطنية، فقد تميزت منطقة القبائل ومعها بعض الجزائريين المعارضين للسلطة عن المناطق الأخرى في المجال الأيديولوجي وفهم قيم الثورة وأيديولوجيتها بنفس الطريقة التي تميز بها الشيعة مثلا في التأويل الديني عن أهل السنة.

٤- رفض المساس بقداسة الثورة وتاريخها

تطرقنا من قبل كيف يرفض النظام الحاكم في الجزائر منذ عام ١٩٦٢ ومعه الكثير من المجاهدين الحديث عن الصراعات التي عرفتها الثورة أو تصوير المجاهدين بأنهم بشر عاديون تتحكم فيهم النزوات الإنسانية والطموحات السلطوية، ويعود هذا التغييب والتكتم عن هذه الصراعات إلى عدة عوامل، ومنها: عوامل نفسية وتتمثل في شك الجزائري في كل ما يصدر عن الفرنسيين، والطبيعة السرية التي تربى عليها المجاهدون، وسيطرة فكرة الخوف من الفتنة على نفسية الإنسان الجزائري، والحفاظ على قداسة الثورة خاصة لدى النظام الجزائري لأنه يستمد شرعيته من هذه القداسة، ولا يمكن لنا فهم ذلك إلا بفهمنا أن النظام الجزائري يستمد شرعيته من الشرعية التاريخية الثورية، وأي تشكيك في قداسة هذه الثورة معناه تشكيك في هذه الشرعية، بالإضافة أيضا إلى أنه نظام أحادي ينظر إلى الشعب أنه واحد في أفكاره وأيديولوجيته كما سبق أن أشرنا إلى ذلك، ولهذا فمن غير الممكن أن يسوده الصراع، لأن وجود الصراع معناه وجود اختلاف في الرؤى ووجود اختلاف معناه الاعتراف بالتعددية واللجوء لحلها إلى الأساليب الديمقراطية التي رفضها النظام الجزائري لمدة طويلة[١٥].

ولهذا السبب كان النظام الجزائري يمنع الحديث عن الطبيعة البشرية لقادة الثورة والمجاهدين وعن مختلف الصراعات خاصة إذا اتخذت طابعا جهويًا أو على السلطة والمال، لأن هذا كله سيمس بقداسة هذه الثورة، بل عمدت السلطة إلى غرس نوعا من القداسة لهذه الثورة في ذهنية الإنسان الجزائري بواسطة تدريس التاريخ في المدرسة ووسائل الإعلام وغيرها، ويرفض النظام الجزائري رفضًا تامًا أي إشارة تنتقص من قداسة الثورة الجزائرية، وقد وضع مؤخرا مادة دستورية في التعديل الدستوري الذي أجراه الرئيس بوتفليقة يوم ١٢ نوفمبر ٢٠٠٨ يعاقب بموجبه كل من يمس ما يسمى ب"رموز الثورة"، كما منع النظام الجزائري منذ الإستقلال حتى عام ١٩٨٨ كل الكتب التاريخية أو المذكرات التي تتحدث عن مختلف الصراعات التي عرفتها الثورة الجزائرية.

ويشبه هذا الأمر نفس ما حدث في تاريخ الإسلام من رفض أي مساس بالصحابة أو أي انتقاد لبعض ممارساتهم، أو الحديث عن الفتنة الكبرى التي يجب السكوت عنها وتجاوزها، فكما ينظر إلى صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم بنوع من القداسة، فإنه نفس الأمر بالنسبة للشهداء والمجاهدين في الجزائر، إلا في حالة معارضة هؤلاء المجاهدين للنظام، ولهذا فلا يجوز الحديث عن طموحاتهم الإنسانية بصفتهم بشر عاديون، كما لا يجب الحديث عن بعض الصراعات والفتن التي عرفتها الثورة، وذهب ضحيتها الكثير من المجاهدين بحكم صراعات سياسية وجهوية ومصلحية، لأن هذا كله يعتبر مساسا بهذه الثورة المقدسة ورجالاتها، لكن إذا تتبعنا مسار تاريخ الثورة الجزائرية، خاصة في سنواتها الأخيرة، فإننا نجدها مليئة بالصراعات والمناورات والدسائس من أجل أخذ السلطة بعد استرجاع الاستقلال، وقد كانت لهذه الصراعات تأثير سلبي كبير على الجزائر.

خاتمة

تبين لنا مما سبق أن لا وجود لاختلاف كبير بين ما وقع بين الدعوة الإسلامية الأولى وإنشاء دولتها وما وقع للثورة الجزائرية ومبادئها ونشأة الدولة الوطنية الجزائرية، وأن الصراع حول السلطة أثناء أزمة صيف ١٩٦٢ التي عاشتها الجزائر غداة الاستقلال وانعكاساتها الوخيمة على مستقبل الدولة الوطنية يشبه إلى حد كبير الفتنة الكبرى التي عرفها المسلمون منذ أربع عشر قرنًا، وهو الأمر الذي ظل يتكرر في تاريخ العرب والمسلمين طيلة فترة طويلة جدا، وقد عجز هؤلاء رغم ذلك التكرار لنفس الظاهرة على حل مشكلة السلطة التي تعد أهم مشكلة تعاني منها هذه الشعوب، مما جعلها تعيش في مرض مزمن يتمثل في عدم الاستقرار الناتج عن العجز في حل مشكلة السلطة وانتقالها بشكل سلمي دون إقصاء أي مكون من مكونات الأمة سواء كانت أيديولوجية أو طبقية أو ثقافية وغيرها من المكونات، وقد عجزت هذه البلدان، ومنها الجزائر على إيجاد حل لذلك، على عكس الغرب الذي أخترع الديمقراطية بصفتها أسلوبا وميكانيزمات لحل مشكلة السلطة في بلدانها بشكل سلمي وتحافظ على استمرارية الدولة في وضع مستقر وإيجاد ميكانيزمات لحل مختلف تناقضاتها.

الهوامش

1 -Albert Memmi, Le portrait de colonisé-précédé du portrait du colonisateur-,(Paris, éd Buchet-Chastel, 1957)

2 -Albert Memmi, Le portrait du déclonisé arabo-musulman et quelques autres,(Paris, éd Gallimard, 2004)

3 - Ahmed Ben Bella, Itineraire, (Alger, éd Maintenant, 1990) p83

٤- محمد جابر الأنصاري، تكوين العرب السياسي ومغزى الدولة القطرية-مدخل إلى إعادة فهم الواقع العربي-، (ط٣ بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٠) ص٧.

٥-كرين برنتون، دراسة تحليلية للثورات، ترجمة عبد العزيز فهمي، مراجعة محمد أنيس، (القاهرة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٦) ص ص١٧-١٨.

٦-علي شريعتي، دين ضد الدين، ترجمة حيدر مجيد، (ط١ بيروت، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت٢٠٠٣) ص ص٤٨- ٥٠.

7 - Ferhat Abbas, L'indépendance confisquée,(Paris, ed Flammarion, 1984).

8 - Mohammed Harbi , Le F.L.N. mirages et réalité-des origines a la prise du pouvoire(1945-1962),(Alger, éditions Naqd-Enal ,1993), pp293-314.

9 -Addi Lhaouari, L'armée :la nation et l'etat en algerie,(Paris, Revue Confluences méditerranée n°29 printemp1999), pp 39-46.

١٠-أنظر في ذلك على سبيل المثال لا الحصر:

محمد العربي الزبيري، المؤامرة الكبرى أو إجهاض ثورة ،(الجزائر، المؤسسة الجزائرية للطباعة، ١٩٩٠).

١١- رابح لونيسي، رؤساء الجزائر في ميزان التاريخ، (الجزائر، دار المعرفة، ٢٠٠٩).

١٢- محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي- المحددات والتجليات-، (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠١).

13-Addi Lhouari, l'impasse du populisme-l'algerie : collectivité politique et etat en construction-,(Alger, ed E.N.A.L, 1990).

١٤- رابح لونيسي، الجزائر في دوامة الصراع بين العسكريين والسياسيين، (الجزائر، دار المعرفة، ٢٠٠٠) ص ص١٣٠-١٤١.

١٥- رابح لونيسي، الصراعات الداخلية للثورة الجزائرية في الخطاب التاريخي الجزائري، (مجلة إنسانيات، الصادرة عن مركز البحث في الأنتروبولوجية والثقافية بوهران عددي ٢٥-٢٦ (جويلية- ديسمبر٢٠٠٤) ص ص٢٧- ٤٢.